صـــــدر عـــن (المدى)

جنـــة على نهـــر العـــاصي

عرض :بندر عبد الحميد

المؤلف: موريس بارس
ترجمة: محمد عبد الحميد عنبر، عبد المجيد عابدين

هذه رواية استشراقية نادرة ومبكرة، تمثل نموذجاً للأدب الصافي الذي كان مؤلفها الكاتب والمفكر الفرنسي موريس بارس (Maurice Barrés)يطمح إليه، حينما يبتعد عن كتابة الروايات والدراسات الفكرية والسياسية، وهي من آخر أعماله، حيث كتبها عام ١٩٢٢، ولم تصدر إلا في يوم وفاته، عن واحد وستين عاماً، في ٥ - ١٢ - ١٩٢٣, يقول بعض النقاد إن بارس يشبه شاتوبريان الذي تتنفس في أعماله (الروح الفرنسية)، والذي كان المثل الأعلى لفيكتور هيجو، حيث قال في شبابه: إما أن أكون شاتوبريان أو لا أكون. ينتمي بارس إلى مقاطعة اللورين ذات الحساسية الخاصة في النزاعات الحدودية الطويلة بين فرنسا وألمانيا، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية في نانسي اتجه إلى باريس لدراسة الحقوق، ولكنه انصرف إلى ممارسة الكتابة والسياسة فانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٩٤، كما انتخب عضواً في البرلمان حيث خاض معركة انتخابية تحت شعار إعادة الالزاس واللورين إلى فرنسا، وأسهم في تأسيس الحزب القومي. ووصفت أعماله الأولى بالفردية، التي برزت في روايته الثلاثية: تحت عين البراءة، رجل حر، حديقة بيرينيس. التقى بارس مع المفكر الفرنسي الشهير ارنست رينان، مؤسس الحركة الاستشراقية الفرنسية، وأجرى معه حوارات مطولة نشرها في كتاب (ثمانية أيام مع السيد رينان)، وأصدر أعمالاً أخرى منها: نداء إلى جندي، في خدمة ألمانيا، الدم والمسرة والموت، وثلاثية (رواية الطاقة الوطنية)، حيث المزاوجة بين النزعة الفردية التي برزت في ثلاثيته الأولى، والنزعة الوطنية المتطرفة التي تحول إليها، وتمثلت في روايته الشهيرة (الجبل الملهم) التي انتشرت وتركت تأثيراً على الحركات التحررية التي قادها مثقفون من شعوب أخرى، في تلك المرحلة. في فترة الحرب العالمية الأولى ضاعف بارس من نشاطاته كنائب وعضو في الأكاديمية الفرنسية واستمر في كتابة مقالات يومية لمدة أربع سنوات في صحيفة (صدى باريس)، جمعها بعد ذلك في كتاب بعنوان (تاريخ الحرب الكبرى)، أما أعماله الكاملة فقد جمعها ابنه، بعد وفاته، وبدأت بالصدور منذ عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٥٧، في أربعة عشر مجلداً تحت عنوان (دفاتري). وكان لأعمال بارس تأثير واضح على أجيال من الكتاب والفنانين والمفكرين الذين هزت ضمائرهم كوارث الحرب العالمية الأولى، ومهدوا الطريق لظهور مدارس وتيارات فنية وفكرية في أوربا والعالم. وكان أراغون واحداً منهم، فحينما كان في الثامنة عشرة من عمره اكتشف أعمال موريس بارس، في كتاب (ربع قرن من الأدب) وكتب عنه في ما بعد يقول: كانت قراءة هذا الكتاب اشراقة شمس قوية في نفسي، ولا أبالغ إذا قلت انها حددت مسار حياتي. وظل إعجاب أراغون بأعمال بارس مستمراً حتى نشر مقابلة مطولة معه في (باري جورنال) عام ١٩٢١, سافر بارس إلى اليونان عام ١٩٠٦ ونشر كتاباً بعنوان (رحلة إلى سبارطة) يستذكر فيه الماضي والحاضر، ثم سافر إلى اسبانيا، ونشر بعدها كتاباً بعنوان (غريكو، أو سر طليطلة) عام ١٩١١، ثم كانت رحلته الطويلة إلى الشرق، التي قادته إلى بعض العواصم العربية، تحت تأثير رغبة في فهم جوانب غير معروفة في الحروب الصليبية، ووصل إلى مدينة حماة في صيف عام ١٩١٤، ومنها استوحى احداث أشهر أعماله الأدبية (جنة على نهر العاصي) التي تأخذ شكل الرواية داخل الرواية، حيث تجري الرواية - الإطار بلقاء المؤلف في حماه مع باحث ايرلندي شاب عهد إليه المتحف البريطاني التنقيب في مدينة جرابلس، على ضفاف الفرات الأعلى، وقادهما البحث عن الماضي في مدينة حماه إلى منزل تباع فيه التحف القديمة، حيث اشتريا بعض التماثيل النصفية لأباطرة سوريين وقطعاً من النقود الذهبية ومخطوطاً عربياً، راح الشاب الايرلندي يترجمه ويضيف إليه من بنات أفكاره، عن أحداث جرت في قلعة العابدين قرب حماه في القرن الثالث عشر، بعد انتهاء الحروب الصليبية. وتبدو تأثيرات السرد في حكايات ألف ليلة وليلة واضحة على الرواية التي ضمها المخطوط، الذي تخيله المؤلف، بما فيه من أجواء سحرية وحب للحياة، وتسامح، وفروسية. (جنة على نهر العاصي) من الأعمال القليلة التي ترجمت إلى العربية، حيث صدرت عام ١٩٤٦ في باكورة الأعمال المترجمة في سلسلة الكاتب المصري التي أشرف عليها الدكتور طه حسين.

الرسالة الرابعة إلى الغابرين في مقابرهم

عـمـــاد حـــسـن*

غادروا البيوت مسرعين
وحدها الأبواب ودعت روائحهم
ولم تكن العصافير في السطح تعلم
أي طريق يقود إلى الليل
والخيط الأبيض ينقطع كلما أومضت سحابة
كانت الأسرة تنام وحيدة
والعشاء يبرد في الصحون
حتى طال انتظار النسوة على الأبواب
النسوة اللآتي ملأن فراغ افئدتهن بالنواح
جموع من الأيام تسقط ببطء
حتى امتلأت الغرف بالذكريات
تركوا الصمت مكوماً في الزوايا
وعلى عتبات الدور ما زالت الظلال تأرجحها الريح
❖❖❖❖
لم تتعرفهم الشمس حين لامست هياكلهم
وأنكروا الصراخ الذي بدا مدهشاً
كانوا موحشين وبارعين في الأسى
وتساءلوا مرارا عن الجهات التي سلكتهم
خذلتهم الفصول واستبد بهم الرصاص
وقد تكوروا ليحموا ذكرياتهم من الفناء
وحين أطبقت أجفانهم على سعة الكون
بدت أمهاتهم أكبر عمراً
وقد اهترأن من شدة ما احتكوا بموتهم
ولدوا مع البحار
ولم تطأهم قدم الريح يوماً ليكتشفوا موتهم
كان الصبر يرشح من هياكلهم
وقد أبهضهم ثقل التراب
وقصر الأمد
ناجون من الحياة
وفي الليل يعلقون أحلامهم على حبال الأمل
يأمرون بعضهم بالصمت
وحين الخطوات تنأى يعودون إلى صمتهم من جديد
في الشتاء يزرعون العوسج
ويحصدون أحزان الخزامى
وفي الصيف يرعون الأغنيات.
❖❖❖❖
البيوت تشيخ سريعاً وهي تمسك بدهشتها
وعلى السطوح
ثمة قمح ينمو في أعشاش الحمام
كانت الظهيرة خالية
تقول النسوة: ربما عادوا في ظهيرة قائظة
فيولن النخيل
ويكترين الصبايا لهم
لكنهم يغيبون عن أعراسهم أيضا
أولادهم يكبرون على العتبات
وحيدين
وتتساقط أجفانهم.
سيأتي المطر في تشرين
ستأتي البيوت مهجورة
ستأتي الأسرة بلا فرسانها
ستأتي النسوة معبآت بالغياب
وسيأتي الأولاد، جيوبهم محشوة بالصور القديمة
وذكريات ليست لهم
ستأتي الظهيرة خالية.
❖❖❖❖
تشوبهم فضة قديمة
وجراح باذخة تنمو على أكتافهم
كانت الأنهار ترتجف في صدورهم
والرصاص يترك الأرض مفتوحة للحديث
لم تحتفظ بهم صورهم
ولم يرجعوا يوماً ليمسحوا غبار زوجاتهم
ولعلهم لوحوا للبساتين الوحيدة في غفلة الحراس
وربما تجاهلتهم المحاريث ذات صباح ندي
واكتشفتهم الجرار
ماضون إلى آجالهم
ندبتهم القبرات طويلاً
وسطا الدود على فضتهم
خلفوا أحلامهم في المضاجع
وقمصانهم على الرفوف
وفي الصناديق المغلقة جيداً
ثمة أسرار تناقلتها العصافير
فرقتهم المواسم
وأتت على هياكلهم الجذور
كانوا يتسلون بعد أحزانهم
حتى اجتاحهم الرماد وذهب ماؤهم
وبعد أعوام نسيت العصافير أسرارهم
كبر أولادهم
وذبلت نساؤهم من الترمل
لم يعودوا إلى أسرتهم
ولم يعلم أحد في أي جهات تواروا

سكـــان الاهـــوار و الـثـقـــافـــة الإذاعـيـــة

محمـد الحمـراني

تعتبر مناطق أهوار العراق، أماكن معزولة، عن المدن منذ سنوات بعيدة مما جعلها تعاني من عدم وجود مدارس أو مراكز تعليمية، فتمركزت الطاقات الثقافية في نطاق مضيف العشيرة، الذي هو بالنسبة لأولاد القرى مركز لنشر المعلومات واصدار القرار. ومن المضيف كانت تأتي المعلومة الجديدة والأحداث الساخنة، التي تشكل ثقافة الفرد. وانكسر هذا الطوق مع بداية القرن العشرين، و انتشار أجهزة الراديو في مناطق الاهوار، وراح اغلب الوجهاء يقومون ببناء مدارس لهم، تحمل أسماءهم كرد اعتبار للثقافة وكحاضنة ثقافية تواجه اغراءات الراديو. وفي قرية(ام كعيدة) الواقعة في اهوار العمارة الوسطية، كان أول رجل يدخل راديو إلى القرية يدعى عبود الحمد ويقال ان جميع أبناء القرية، كانوا يأتون يوميا لسماع الأخبار والأغاني، التي تبثها الإذاعة في بداية افتتاحها عنده، وكان القرويون يتحدثون بهذه الطريقة (سمعت من راديو عبود الحمد وقال الراديو.. الخ)، وهناك نكتة شاعت في الاهوار في تلك الفترة، تقول ان رجلا اشترى راديو جديداً ووضعه في صريفته وذهب لصيد الاسماك وفي غيابه ظهرت أغنية جميلة، لداخل حسن مما جعل الزوجة تسارع لأغلاق المذياع وعندما عاد زوجها متعبا، أخبرته بأنها ستسمعه أغنية جميلة تزيل همومه وحين أدارت مفتاح الراديو ظهر لها صوت رجولي خشن يقول :(الأن معكم موجز الأخبار). اثر ظهور الراديو، في تثقيف الفلاحين وجعلهم يتمردون على ملاك الأراضي فحفظوا أسماء رؤساء الدول وأسماء المطربين وبدأوا بمتابعة البرامج الثقافية والمسلسلات الأذاعية وبرامج التوعية الدينية والصحية و القصص التاريخية وابتكر بعضهم وسائل لتحوير الراديو، ليعمل ببطارية السيارة وكان القرويون يضعون الراديو في منتصف الزورق ويذهبون الى أعماق الأهوار، ولان شكله يشبه صندوق الثياب، الذي كان متداولا بكثرة في تلك المناطق، أطلق عليه تسمية الراديو ابو الصندوق.وكان الكثير من المعارضين للحكومات السابقة، في قرى الاهوار، يلجؤون الى الثقافة الاذاعية، لعدم وجود مكتبات، وتسبب الراديو في انتفاضات عديدة ضد ملاكي الاراضي في منتصف القرن الماضي، وأصبح كل بيت في الاهوار، لديه راديو، وبدأ السكان يتنافسون على شراء الماركات المميزة والصغيرة الحجم وسهلة الحمل والتجوال بها بين الحقول وكان المستمعون يتداولون أخبارا وقصصا تذاع في صوت أمريكا والـ بي. بي. سي وصوت العرب من القاهرة وبعض اذاعات الاتحاد السوفيتي الناطقة بالعربية واذاعة موفتكارلو في بداية السبعينيات وأصبحت مهنة بيع أجهزة الراديو، مهنة شائعة فبعضها دخل عن طريق ايران والبعض الآخر دخل عن طريق الكويت، واغلب هذه الأجهزة كانت مهربة.

الكثير من مطربي العمارة الأوائل، كانوا يحلمون بان يغنوا في الاذاعة ومنهم مسعود العمارتلي، وبعده بسنوات ظهر عبادي العماري وسلمان المنكوب اللذان غنيا في الاذاعة وحصلا على شهرة كبيرة بدأت تطلق عليهم صفة مطرب الاذاعة خاصة في الحفلات الشعبية، ومن يحصل على هذه الصفحة يحصل على تقدير عال وترتفع أجوره، وفي الاشرطة الغنائية يقدم بهذه الكليشة: (ايها المستمعون نقدم لكم اليوم في حفلتنا مطرب الاذاعة فلان الفلاني). لابد من الاعتراف بان الاذاعة هي مصدر ثقافة الكثير من الادباء والسياسيين الذين ينحدرون من جذور ريفية، وليس من السهل سلخهم من مصادر ثقافتهم الاولى. سكان الاهوار بعد سقوط الدكتاتورية كانوا يحركون موجات اجهزتهم، بين اذاعات اغلبها فارسية، ولايعرفون منها غير صوت الاذان. اما اليوم فقد غزت اكواخهم أطباق الستلايت واصبح من السهل عليهم، مشاهدة مئات القنوات الفضائية المنتشرة لكنهم ما زالوا يطلقون على القنوات التلفزيونية تسمية اذاعة مثلا (اذاعة العربية واذاعة الحرة واذاعة دبي) وقال لي مواطن من سكنة الاهوار اسمه(عبد الامير حسون) أنه يشعر باغتراب مع الستلايت لأنه لا يعثر على أغاني الريف او النصائح التي كانت توجه الى الفلاحين والبسطاء من الناس، وبعض المحطات تخفي نوايا سيئة، أي تنحاز الى جهات معينة وهذا لم نكن نشعر به حين ندير موجات الراديو، وان اذاعة بغداد لم تعد كما عهدناها وأصبحت اشبه بشريط لبث الاغاني والاحاجي، وفي احيان كثيرة لايصلنا بثها. اذن الثقافة الإذاعية هي ثقافة مؤكدة وذات جذر لسكان مناطق اهوار العراق وحين ينتقلون فجاة من الثقافة الاذاعية الى الستلايت، فهم حتما يحتاجون لندوات وبرامج تعريفية بالأعلام المرئي المعاصر.. حتى لا تطفو قشور ثقافة الستلايت على مجتمع لم يستعد لها جيدا. القمر الصناعي بالنسبة للكثير من سكان الاهوار يمثل اليوم المضيف المعاصر، فمن خلاله يتوفر لهم التعرف على أخبار وحكايات متعددة في أماكن مختلفة من العالم، ولكن مشكلتهم الوحيدة تكمن في أنهم كانوا يضعون المذياع في الزورق ويذهبون، لمتابعة جواميسهم، او زراعة الأرض وصوت المذياع يصدح حولهم، وهذه المتعة لا يتمكن الستلايت من ان يحققها.